مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 15 ع 01.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الأبعاد الجمالية لصورة المرأة النايلية من منظور لوحات الفنان المستشرق نصر الدين دينيه

The aesthetic Dimensions of The Image of the Nile Woman from the Perspective of the Paintings of the Orientalist Artist Nasser al-Din Dineh

نعيمة بن عروسة * Naima Benarroussa
naima.benarroussa@univ-relizane.dz
فلسفة الفن والجمال/ جامعة أحمد زبانة –غليزان / الجزائر

DOI:10.46315/1714-015-001-003
الإرسال: 2025/07/04 **القبول:** 2025/12/30 **النشر:** 2026/01/16

**

ملخص:

اهتمّ عدد من المستشرقين بتصوير حياة الشعب الجزائري إبّان الفترة الاستعمارية، مجتهدين في رسم معالمها وأبعادها الاجتماعية والثقافية. وقد شكّلت اللوحة التشكيلية أداة أساسية اعتمد عليها هؤلاء الفنّانون لنقل تجربتهم الجمالية وتمثّلهم للبيئة الجزائرية. ويعدّ "نصر الدين دينيه" من أبرز الرسامين الذين أولوا عناية خاصة بتجسيد حياة الأهالي، إذ نقل واقعهم اليومي بصدق كبير. وقد كانت المرأة النايلية على وجه الخصوص موضوعاً مركزياً في أعماله، لما تمثّله من جمال ورمزية ثقافية وهوية، مما حفّزه على الإبداع والإكثار من الرسومات التي عكست لباسها التقليدي وملامحها الجمالية ورشاقتها.

انطلاقاً من هذا، تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على المكانة الفنية لصورة المرأة الجزائرية عند دينيه، والكشف عن الخلفيات الجمالية والفكرية التي وجّهت تصويره لها. كما تهدف إلى الوقوف عند التناسق والدقّة في رسم ملامح المرأة النايلية، وربطها بسياقها الثقافي والاجتماعي، من أجل تبيّن قيمة هذه الصورة في تشكيل الوعي الجمالي بالتراث الجزائري. وتطرح الدراسة جملة من التساؤلات من بينها :ما طبيعة إسهامات دينيه في هذا المجال؟ وما غاياته وأبعاده الجمالية؟ وكيف تلقّى النقّاد أعماله؟

الكلمات المفتاحية :المستشرقون؛ الرسم؛ نصر الدين دينيه؛ الاستعمار؛ المرأة النايلية.

Abstract

A number of Orientalists devoted considerable attention to depicting the everyday life of the Algerian people during the colonial period, endeavoring to represent its social and cultural features through their artworks. Painting constituted a fundamental medium through which these artists conveyed their aesthetic experience and their perception of the Algerian environment. Among them, *Nasreddine Dinet* stands out as one of the most prominent painters who dedicated significant effort to portraying the lives of the local population with great authenticity. The Nailia woman in particular occupied a central place in his work, representing beauty, cultural symbolism, and identity—elements that inspired him to produce numerous artworks capturing her traditional clothing, aesthetic traits, and graceful presence.

Accordingly, this research paper seeks to shed light on the artistic significance of the representation of the Algerian woman in Dinet's paintings and to explore the aesthetic and conceptual foundations underlying his portrayal of her. It

* - الباحث المُرسل: naima.benarroussa@univ-relizane.dz

also aims to examine the harmony and precision with which he depicted the Nailia woman's features, situating them within their cultural and social context, in order to demonstrate the value of this image in shaping an aesthetic awareness of Algerian heritage. The study raises several questions, including: What were Dinet's contributions in this field? What were his artistic aims and aesthetic motivations? And how did critics receive his works?

Keywords: Orientalists; painting; Nasreddine Dinet; colonialism; woman; Nailia culture.

**

1- مقدمة

شهدت المنطقة العربية خلال الحقبة الاستعمارية تزايدًا لافتًا في اهتمام الفنانين والرحّالة الأوروبيين بثقافات الشرق وفنونه وواقعه الاجتماعي. فقد قصد العديد منهم الأقطار العربية، ومنها بلدان المغرب العربي، رغبةً في اكتشاف عادات الشعوب، وفنونهم، وطرائق عيشهم. وقد عُرف هؤلاء بـ المستشرقين الذين انقسموا بين فئةٍ سخّرت معرفتها لخدمة المشروع الاستعماري عبر تقديم صورة مشوّهة أو متخيّلة عن الشرق، وفئةٍ أخرى سعت بصدق إلى فهم المجتمعات العربية والتعريف بفنونها وعمقها الحضاري بموضوعية أكبر. في هذا السياق نذكر أن الجزائر كانت مطلع القرن التاسع عشر من أهم الوجهات التي جذبت المستشرقين، لما تمتاز به من بيئة طبيعية خلّابة تتنوّع بين الرمال والجبال والواحات، وما تزخر به من تقاليد وثقافات محلية أصيلة. وقد أُعجب الفنانون بالجمال الطبيعي الجزائري وثراء تاريخه وخصوصية نمط العيش فيه، فحاولوا توثيق ذلك بلوحات تجمع بين الإتقان الفني والرغبة في تسجيل المشاهد اليومية من حياة المجتمع الجزائري: من أعراس واحتفالات، إلى رسم ملامح الإنسان الجزائري عامة، والمرأة على وجه الخصوص.

بين الشخصيات الفنية التي تركت أثرًا كبيرًا في تمثيل الحياة الجزائرية، يبرز اسم الفنان المستشرق نصر الدين دينيه، الذي سُحر بالصحراء الجزائرية وبجمال طبيعتها الهادئة، وانجذب بقوة إلى عمق تقاليد أهلها وتمسكهم بأصالتهم وهويتهم. وأكثر ما شدّ انتباهه كان المرأة النايلية بما تتميّز به من ملامح قوية، ولباس تقليدي محتشم، وزينة ، وحضور اجتماعي بارز يظهر في مختلف المناسبات. وقد انعكس هذا الإعجاب جليًا في لوحاته التي صوّرت المرأة النايلية في مشاهد يومية واحتفالية، مقدّمًا إيّاها بوصفها عنصرًا فاعلًا في الحياة الصحراوية، لا مجرد موضوع جمالي.

يروم مقالنا هذا تسليط الضوء على الاستشراق الفني والتعرّف على جذوره وغاياته المتباينة، ثم التوقف عند التجربة المميّزة للفنان نصر الدين دينيه الذي عاش في الجزائر وتشرّب ثقافتها حتى أعلن إسلامه، وسعى في أعماله إلى نقل الواقع الصحراوي بصدق وعمق. كما يركّز البحث على تحليل صورة المرأة النايلية في لوحاته، والبحث في مدى نجاحه في تمثيلها تمثيلًا واقعيًا وجماليًا يكشف عن خصوصيتها وهويتها السوسيوثقافية. وعليه تطرح الإشكالية الآتية: ما هي أبرز تمثلات

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

صورة المرأة النايلية في لوحات نصر الدين دينيه؟ وإلى أيّ مدى وُفّق الفنان في نقل الواقع الصحراوي وتجسيد حياة المرأة وثقافتها؟

2-فرضيات البحث

-يمثل الاستشراق حركة فكرية وفنية غربية هدفت إلى دراسة الشرق العربي ونقل معارفه وآدابه وثقافاته إلى الغرب، مع تباين واضح في صدق التمثيل وموضوعيته.

- تراوحت أهداف المستشرقين بين اتجاهٍ وظّف معرفته لخدمة الاستعمار عبر تشويه الحقائق وتغذية الأحكام المسبقة، واتجاهٍ آخر حاول مقاربة الشرق بموضوعية والتعريف بحضارته وفنونه دون تحريف.

-شكّلت المرأة الشرقية محورًا أساسيًا في الفن الاستشراقي، لما تحمله من جاذبية خاصة تتجلى في جمال ملامحها ورشاقة جسدها وتنوع زينتها، ما جعلها موضوعًا غنيًا للتمثيل البصري.

-سعى الفنان نصر الدين دينيه إلى نقل الواقع الحقيقي للفتاة النايلية، باعتبارها رمزًا للجمال والخصب والأصالة، مؤكدًا حضورها الاجتماعي وتمسّكها بالقيم الإسلامية والتقاليد المحلية عبر لوحات اتسمت بالصدق والواقعية.

3-أهداف البحث:

-التعرّف على الفن التشكيلي الاستشراقي في الجزائر، والتمييز بين المقاربات الفنية الصادقة وتلك التي انزلقت نحو الزيف وخدمة الخطاب الاستعماري.

-الكشف عن جماليات البيئة الصحراوية الجزائرية التي أثارت دهشة المستشرقين وولعهم، وإبراز أثر هذا الانبهار في نتاجهم الفني.

-تحليل صورة المرأة النايلية في لوحات نصر الدين دينيه، وإبراز تفرد حضورها الجمالي والثقافي، مع تفسير عناصر الجاذبية التي نجح الفنان في إبرازها توظيفًا للون والخط وتقنيات التمثيل الواقعي.

4-المنهج المتّبع في البحث:

اعتمد هذا البحث على مقاربة منهجية مزدوجة تجمع بين المنهج الوصفي–التحليلي والمنهج التحليلي–التأويلي للأعمال الفنية، وذلك بما يتناسب مع طبيعة الموضوع الذي يقوم على دراسة تمثلات صورة المرأة النايلية في لوحات نصر الدين دينيه، وتحليل أبعادها الاجتماعية والجمالية والثقافية.

-استُخدم المنهج الوصفي في رصد المعطيات الأساسية المتعلقة بالاستشراق في الجزائر، وظروف ظهور الفن الاستشراقي، وتعريف شخصية الفنان نصر الدين دينيه، وسياق إسلامه،

وطبيعة علاقته بالمجتمع البوسعادي. تم توظيف هذا المنهج بوجه خاص في المقدمة، وفي العرض التاريخي لسيرة دينيه، وفي توصيف البيئة الصحراوية وخصائص المجتمع النايلي.

- تم توظيف المنهج التحليلي الفني في قراءة لوحات دينيه واستخراج الدلالات التشكيلية التي تعكس صورة المرأة النايلية، من حيث الخطوط والألوان، وتوظيف الضوء والظل، ورسم تفاصيل الوجه والجسد والزي والحلي. واستُخدم هذا المنهج بشكل موسّع في الجزء المتعلق بتحليل صورة المرأة النايلية في أعمال دينيه، ولا سيما فقرة *"تمثلات صورة المرأة النايلية من خلال لوحات نصر الدين دينيه"* ، وكذلك في فقرة *"البعد الجمالي للفتاة النايلية الراقصة."*

- استند البحث كذلك إلى المنهج التأويلي (الهيرمينوطيقي) في تفسير الرموز والمعاني العميقة التي تُحيل إليها رسومات دينيه، خصوصاً ما يتعلق بدلالات الأنوثة والهوية والخصوبة، وبناء صورة المرأة كرمز للجمال والأصالة والصمود. وقد وظّف هذا المنهج في استخراج أبعاد الجمال الروحي والجسدي، وتحليل تمثّلات المرأة بين الواقع والتخييل الفني، وفي الكشف عن الموقف الإنساني والحضاري الذي حملته أعمال دينيه مقارنة ببقية المستشرقين. وبهذا التكامل المنهجي، أمكن للبحث أن يجمع بين الدقة الوصفية والعمق التحليلي والرؤية التأويلية، ما أتاح فهماً أشمل لصورة المرأة النايلية كما تجلّت في الفن الاستشراقي، وتحديداً في أعمال الفنان نصر الدين دينيه.

5-الاستشراق: لغة واصطلاحًا

أولًا: المعنى اللغوي

يرتبط مصطلح الاستشراق في جذره اللغوي بالفعل شَرَقَ، ويقال :شرقت الشمس شرقًا وشروقًا إذا طلعت (مصطفى، 1960، ص482)، ومنه فالكلمة مشتقة من معنى الطلوع والبزوغ. كما يرد في المعاجم أنّ الفعل استشرق يعني :استشراقًا – استشرق العالم الأجنبي: كان عالمًا بالعلوم والآداب واللغات والمعتقدات والعادات والتقاليد الشرقية (عمر، 2008، ص4)، أي أنّه اطّلع على علوم الشرق وثقافاته وانفتح عليها. ويُقال كذلك :*استشرق: طلب علوم الشرق ولغاته* (رضا، أ.، دمشق، ص311)، ومن ثمّ يكون المستشرق هو الباحث المتخصص في ثقافة الشرق وعلومه وتحليلها، حتى قيل :*استشرق أي دلّ نفسه في أهل الشرق وأصبح منهم* (مراد، 1978، ص6) وعليه، فإن كلمة "استشراق" في أصلها اللغوي تدل على معرفة شؤون الشرق وعلومه وأحواله ودراستها وتصنيفها.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي: يشير المفهوم الاصطلاحي إلى: دراسة الغرب لمختلف البُنى الثقافية للشرق من وجهة نظر غربية، ويُستعمل للدلالة على *تقليد أو تصوير مظاهر الحضارات الشرقية في أعمال الأدباء والفنانين الغربيين* (ملوحي، 2020، ص20) ، كما يُعرّف بأنه *دراسة الغرب للشرق بهدف رصد الحياة الشرقية من خلال مكوّنات مجتمعاته كافة: من علوم، وفنون، وأدب، ودين،*

ومختلف عناصر الثقافة الإسلامية، قصد التعرف على عقلية المسلمين وأفكارهم واتجاهاتهم (سارة، 2019–2020، ص4).

يرتبط الاستشراق أساسًا بدراسة العالم العربي والإسلامي في آسيا وإفريقيا، بعيدًا عن السياق المسيحي الأوروبي. ويُنظر إليه باعتباره حركة فكرية منظَّمة ذات أهداف ومرجعيات، ظهرت بوضوح في العصر الحديث، بدءًا من القرن الثامن عشر، رغم وجود إرهاصات أقدم لها. فقد مثّلت هجرة العلماء النصارى إلى الأندلس من أبرز البدايات العملية لهذه الحركة؛ إذ قصدوا مراكز العلم عند المسلمين، وترجموا المخطوطات العربية إلى اللاتينية، وهو ما شكّل إحدى ركائز النهضة الأوروبية (صالح، 1998، ص85). يمكن القول إنّ الاستشراق هو تيار فكري وعلمي اهتم بدراسة الشرق دراسة تحليلية معمّقة، تشمل تاريخه، وثقافته، وعلومه، وحضارته، ويقابلها في الإنجليزية مصطلح *(orientalism)*، وتشير كلمة *(orient)* إلى الشرق، بينما تسمّى البلدان الشرقية *(the orient)*، ويُقال للباحث في تاريخ الشرق *(orientalist)* أو *مستشرق* (ملوحي، 2020، ص22).

6-بدايات الفن الاستشراقي بالجزائر

مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، عملت الإدارة الاستعمارية على احتواء الفن المحلي وتوجيهه بما يخدم مشروعها الثقافي القائم على طمس الهوية العربية الإسلامية. وفي هذا السياق، استقدمت فرنسا عددًا من الفنانين الغربيين للاحتكاك بالفنانين الجزائريين، والاطلاع على الفنون العربية الإسلامية، وتحديد عناصر القوة فيها. وهكذا ازدهر ما عُرف بـ الفن الاستشراقي، ذلك التيار الذي "تمت ممارسته بالجزائر بشكل كبير... كما تشهد على ذلك كثرة اللوحات الاستشراقية المنتَجة بها، والتدفق المستمر للمستشرقين إليها حتى غدت وجهتهم الأولى (سارة، 2019-2020، ص11).

لقد مرّ الفن الاستشراقي بمراحل متعددة كان من أبرز دوافعها الحملات الاستعمارية على العالم العربي، وخصوصًا المغرب العربي الذي شكّل نقطة انطلاق لهذا الفن بفضل ما يزخر به من مناظر طبيعية خلابة وتنوع ثقافي واجتماعي ملهم. فكما يشير حسني" :*مارس الشرق إغراءه على الفنانين الغربيين لقرون، غير أن القرن التاسع عشر كان ذروة هذا الإغراء، إذ تزايدت الأسفار إليه بسبب سحر العادات والتقاليد وتنوع الجمال*)" (حسني، 2012، ص9). وهكذا فرض الشرق نفسه على خيال الفنانين الغربيين، وجذبهم بموضوعاته وألوانه ومخزونه الجمالي. وتباينت دوافع المستشرقين: ففئة قليلة نظرت إلى الفن الاستشراقي باعتباره مرآة للجمال الشرقي وانعكاسًا لواقع الشعوب ونقلًا لثقافاتها. في حين وظّفت فئة أخرى هذا الفن كأداة استعمارية هدفها تصوير الأماكن والقبائل والعادات بما يخدم الخطط التوسعية. وقد كان المستشرق في هذه الحالة "السلاح الخفي للمستعمر"، يسهم بلوحاته في دراسة شخصية الإنسان الشرقي وتسهيل السيطرة

عليه. ويشير أحد الباحثين إلى أنّ الاستشراق *"كأيديولوجية متجذّرة في الآداب والعلوم والفنون... سهّل للغرب تحقيق أهدافه التوسعية، وكان الرسم الاستشراقي أحد أهم أسلحت* (سارة، 2019-2020، ص13). كما ساهمت الرومانسية الأوروبية في ترسيخ هذا الاتجاه؛ فقد تبنّت تصوير الشرق ببنيته الروحية والمادية، وطوّرت تمثلاته الجمالية، وانتقلت من مفهوم "الغرائبية" إلى مفهوم "الاستشراق" كتصور شامل لعلوم الشرق وفنونه (بيطار، 1992، ص8).

احتلت الجزائر مكانة مركزية في هذا الحقل الفني، حيث:"بزغت شمس الاستشراق على الجزائر التي لم تكن تملك مدرسة فنية خاصة آنذاك، وكان فنانو الحقبة مقيدين بالإيديولوجيا الأكاديمية الفرنسية، فوجدت التجارب الفنية الجزائرية نفسها في هامش التيار الاستشراقي(مردوخ، 1988، ص22) فقد عمل الاستعمار على احتكار المخطوطات والوثائق والمعالم وتقديمها للمستشرقين، وتأسيس جمعيات فنية تسهّل نشاطهم، مما جعل الاستشراق يتجدد باستمرار، سارعت فرنسا" إلى وضع يدها على كل ما يخص الثقافة الجزائرية... ليصبح من الممكن تحديد مدارس لهذا الاستشراق "(خالدي، 2009-2010، ص28)، وقد أصبحت الجزائر قبلة للفنانين الفرنسيين؛ إذ *"زار الشرق في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي 150 فنانًا فرنسيًا... وشكّل الاستشراق تيارًا رئيسيًا داخل الحركة التشكيلية الفرنسية*) "بيطار، 1992، ص10). ورغم انبهار هؤلاء بالفنون الإسلامية، إلا أنّ كثيرًا منهم قدّم صورًا مشوهة للثقافة الجزائرية، في إطار رؤية استعمارية متمركزة حول الذات الغربية. فالشرق الذي درسه الغرب لم يكن شرقًا جغرافيًا بقدر ما كان شرقًا هوياتيًا وسياسيًا .الاستشراق الفني يمثل" *:تصور الذات الغربية عن الشرق... وهو افتتان جمالي ينطوي في الوقت نفسه على عنصرية وتعالٍ كبيرين* (الطيب، 2022، ص25).

7-نصر الدين دينيه: المستشرق المتفرّد والعاشق للجمال الصحراوي الجزائري:

يتّسم الفنّ الاستشراقي بتنوع موضوعاته بين المشاهد الطبيعية من جبال وسهول ورمال، والمشاهد الإنسانية التي ترتبط بالحياة اليومية من عادات وتقاليد. وفي هذا الإطار، ركّز معظم المستشرقين على تصوير المرأة الشرقية باعتبارها مادة جاذبة للفن الاستشراقي. غير أنّ الفنان نصر الدين دينيه شكّل استثناء واضحاً، إذ تجاوز النزعة الاستشراقية التزيينية، واهتم بتقديم صورة واقعية وإنسانية للإنسان الجزائري.

ولد دينيه في باريس سنة **1861**تحت اسم ألفونس إتيان دينيه لأسرة فرنسية ميسورة. درس الفنون الجميلة في باريس، ثم جذبه الشرق مبكراً بعد معرض أقامه فنانون عادوا من شمال إفريقيا. كانت رحلته الأولى إلى الجزائر سنة 1884نقطة تحوّل في حياته الفنية والإنسانية؛ إذ اكتشف في الصحراء الجزائرية جمالاً روحياً وإنسانياً لم يجده في الغرب، فباتت بوسعادة بالنسبة إليه "أرض الإلهام الأول." غدت المناظر الطبيعية الخلابة متخيله، وغرست فيه الاستعدادات

الفنية المبكرة ومن الطبيعي ان تبدأ مغامرته الإبداعية بتخليد هذا الفردوس الذي سيكون مرتكزا لمسيرته الملحمية " (حركات، 2022، صفحة 11

تميّز بموضوعيته وصدقه، وابتعد عن النزعة الاستشراقية القائمة على الإثارة والغرائبية. فقد عاش بين الجزائريين، وشاركهم معاناتهم وثقافتهم ودينهم، مما انعكس في أعماله التي صوّرت الجمال الداخلي للطبيعة والإنسان دون تحريف. ويصفه بعض الباحثين بأنه كان "ماهِراً في تصوير التقاليد الشعبية، والفنان الكريم النفس الذي لم يتجاهل ما كان يلاقيه السكان من البؤس والظلم والإهانة" (علي، 1975، ص 09). استقرّ دينيه في المسيلة واتخذ من بوسعادة مقراً دائماً لإبداعه. عاش حياة متواضعة في بيت بسيط "سقفه من التراب والقصب وتدعمه عارضات العرعر التقليدي" (فايزة، 2014-2015، ص 40)، وفضّل الاندماج الكامل في المجتمع المحلي، فتبنّى عاداته اليومية وتقاليده الاجتماعية دون تصنّع أو نفاق ثقافي.

كان اقترابه من الإسلام ثمرة معاشرته الطويلة لأهالي بوسعادة، إذ وجد في قيمهم الأخلاقية والدينية الصدق والبساطة والصفاء الروحي. تعلّم العربية تدريجياً، وحضر حلقات الذكر وتعاليم القرآن، فلامست روحانيته أعماقه، فأعلن إسلامه سنة 1913واتخذ اسم نصر الدين .بعد ذلك ألّف مع رفيقه سليمان بن إبراهيم كتابه الشهير "حياة محمد"، الذي أراد من خلاله تصحيح الصورة الغربية المشوّهة عن الإسلام، وفضح الدعاية الاستعمارية التي كانت تقدّم الشرق باعتباره فضاءً للتخلّف والجهل.

مثّلت أعمال دينيه نقلة نوعية داخل الفن الاستشراقي، إذ نقل الواقع كما هو، مستعملاً الألوان والخطوط لإبراز جماليات البيئة الصحراوية والبعد الإنساني في المجتمع الجزائري. وقد جسّدت لوحاته حياة الناس ومعاناتهم تحت الاستعمار، دون أن تفقد دفئها الجمالي. ويذكر أنّه اتخذ مواقف حازمة ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية، منتقداً ما سمّاه "العفوية الاستعمارية الغازية" لما تحمله من ظلم وإهانة للأهالي "على الرغم من أصله الفرنسي" (قجال، 2010-2011، ص 07).

8-تمثلات صورة المرأة النايلية من خلال لوحات نصر الدين دينيه:

عُرف عن نصر الدين دينيه تعلقه العميق بالمجتمع النايلي وثقافته ونمط عيشه، وقد شكّلت هذه البيئة مصدر إلهام رئيسي لأعماله. فاشتغل الفنان على تصوير مشاهد متنوعة من الحياة اليومية، ونقل بدقة واقع الأفراد في الصحراء الجزائرية، معبّراً عن تفاصيل حياتهم وعاداتهم في تلك الفترة. وبين مختلف الموضوعات التي تناولها، احتلّت المرأة النايلية موقعاً مركزياً في أعماله، شأنه في ذلك شأن عدد من المستشرقين، غير أنّ مقاربته لها كانت مختلفة من حيث الصدق والعمق والبعد الإنساني.

لم يكتفِ دينيه برسم المناظر الصحراوية أو تصوير المعاناة الاجتماعية للسكان تحت الاستعمار، بل انتقل إلى تناول الإنسان مباشرةً، فعبّر عن البطولة والشجاعة في لوحات الرجل الصحراوي، كما جسّد روح المقاومة والنضال في مواجهة العدو. ثم وسّع اهتمامه ليشمل المرأة في مختلف مراحل حياتها؛ فرسم الطفلة، والفتاة، والأم، والعجوز، مقدّماً رؤية بصرية تحترم الخصوصية الثقافية والإنسانية للمرأة النايلية.

صورة المرأة العجوز التي تمثل الأصالة والتمسك بالتقاليد

عكست لوحاته صورة العجوز التي تمثّل الأصالة والتمسّك بالهوية، مستثمراً الخطوط الدقيقة والتجاعيد التي تحمل معها ذاكرة من التراث والوشم والزينة التقليدية. كما عبّر عن الأمّ الحانية وارتباطها بأطفالها، واهتمّ بالفتاة النايلية التي تُجسّد في ملامحها الجمال والرشاقة والأناقة الجمالية. فصوّر رقصاتها في الأعراس، وأبرز تناغم اللباس مع الجسد، وانتقاء الزينة والحُلي، وقد حرص على انسجام الألوان والخطوط بطريقة تعكس الجمال كما يراه الشرقي في بعده الرومانسي والروحي، وهو ما يظهر في قوله: "جمال المظهر الإنساني الذي لا يتجسد إلا في كيان الفتاة البهية الحسناء الشابة" (صبطي وعادل، 2017، ص 208). ورغم أنّ عدداً كبيراً من المستشرقين سبقوا دينيه في رسم المرأة الجزائرية، إلا أنّ أعمالهم كانت في مجملها بعيدة عن الواقع، ومليئة بالتحريف والمبالغات ذات الخلفية الاستعمارية، مما جعل صورة المرأة المسلمة تظهر في لوحاتهم متفككة الأخلاق، لا تشبه في شيء حقيقة المرأة الجزائرية المحتشمة والمحافظة. أما دينيه، فقد اتخذ مساراً مخالفاً؛ إذ حاول تسليط الضوء على المرأة النايلية بوصفها ركناً أساسياً في المجتمع، فكشف من خلال أعماله عن جمالها الحقيقي المتجذّر في ثقافة المنطقة، دون إخلال بالاحتشام أو الهوية الدينية.

لقد جاء تمثيله للمرأة النايلية متفرّداً قياساً بغيره من المستشرقين، ليس فقط من حيث تقنية الرسم ودقته، بل من حيث القيم الجمالية والثقافية التي حملتها لوحاته. فقد ابتعد عن النزعة التزييفية التي سادت في الفن الاستشراقي، وعبّر عن المرأة النايلية بصدق وتمسّك بالأمانة الفنية، فكانت رسوماته قمّة في الإتقان والإبداع، عكست حبّه العميق للمجتمع النايلي وتأثره الكبير

بثقافاته المتنوعة. وبذلك، اكتسبت الصورة الفنية للمرأة في أعماله معنى جديداً، يقوم على الجمع بين الجمالية البصرية والحقيقة الاجتماعية، وبين إبراز جمال القوام وحركة الجسد وبين احترام القيم والتقاليد التي تميز المرأة الصحراوية.

9-البعد الجمالي للفتاة النايلية الر اقصة: رمز الخصوبة والوجود:

أن ما شد انتباهه وزاد من ولعه وحبه لهذه الثقافات المتنوعة هو صورة المرأة النايلية وحضورها وقوة تأثيرها عليه، فهو قد ركز على تفاصيها بدقة متناهية كشفت عن انبهاره بهذا الجمال النسوي العربي المسلم الذي لم يرى له مثيل في المجتمعات الغربية من خلال رسم الفتاة الراقصة ليكشف أكثر عن أناقتها ولباسها وجمالها المتفرد الذي يشبه زي الأميرات ، حتى أن "دينيه "قال في هذا المنظر البهي لها " لولا الأساور والخلاخل الثقيلة التي تزين معاصمهن وعراقيبهن ، والصروح الضخمة المركبة من جدائل الشعر وضفائر الصوف ، والمناديل المذهبة التي تعتلي رؤوسهن لاعتقدت أنك تشاهد مجرد غجريات فهذه العلامات الأخيرة فقط تدرك أنهن النايليات المشهورات " (قجال، 2010-2011، صفحة 255)

في هذا السياق، حاول دينيه أن يقدّم صورة دقيقة وحقيقية للمرأة النايلية، مركّزاً على حضورها الجمالي والرمزي داخل المجتمع الصحراوي. فقد ميّز في لوحاته بين اللباس المحتشم اليومي الذي تظهر فيه المرأة بالملحفة البيضاء ـ وهو لباس يعكس قيم الحياء في البيئة الصحراوية ـ وبين لباس المناسبات والاحتفالات الذي يجسّد الأناقة النايلية الأصيلة، حيث تتزيّن المرأة بالحلي الفضية من الرأس إلى القدم، وتتلون ملابسها بألوان نابضة تمنحها إشراقاً جمالياً خاصاً. فكان اللباس المتكون من " من الجبة مع الحلي، وتشد رأسها بالمحرمة والعمامة وتجعل شعرها ضفيرتين تدريهما حول أذنيها، وعند خروجها من البيت تلبس الملحفة البيضاء، أما زينتها فتتخذها بسيطة جدا :خواتم وأقراط وعقد وأساور والخلخال والمشرف ومحزمة الفضة التي تشد بها على خصرها (جادي و عبد العزيز ، 2021، صفحة 238).

صورة الفتيات اليافعات باللباس التقليدي المحتشم

تظهر الفتاة الراقصة في رسومات دينيه بوصفها رمزاً للحياة والبهجة والخصوبة. فقد استثمر الفنان التنوع اللوني والخطي ليُبرز جمال الجسد الناعم وانسيابية الحركة، وليجسّد صورة امرأة تحب الحياة وتتمسك بتراثها بعيداً عن قسوة الاستعمار وضغوط المجتمع. وهكذا صارت المرأة النايلية في فنه عنواناً للأصالة والجمال الصحراوي المميز.

في نظره كانت الفتيات "لآلئ سماوية" تهب للمكان سحراً وروحاً، حتى إنه قال ـ كما ينقل صبطي وعادل *"إذا كانت الجنة في السماء فإنها بالتأكيد فوق هذه البلاد، وإن كانت على الأرض فهي تحتها تماماً... إنهن آسرات في سن الورود، يعرفن كيف يستزين ويغنين ويرقصن حتى يخطفن العقل... إنه عالم شاعري تناوله دينيه* (صبطي و عادل، 2017، ص 208).

ركزت لوحات على الجسد الممشوق للفتاة النايلية، وحركاتها الرشيقة، وأناقة لباسها، وتناسق حليها التي تصدر رنيناً يلفت النظر، مجتمعةً لتشكّل صورة فنية فريدة للمرأة الصحراوية. وتبلغ هذه الصورة ذروتها في إحدى أجمل لوحاته التي يصوّر فيها »فتيات يافعات جميلات، مستديرات الوجوه، مكحولات العيون، سوداوات الشعر... زادتهن حسناً الثياب الزاهية والحلي الفضية التي يتحلين بها... إنهن سحر الجمال البوسعادي الجزائري عندما يجتمع في هيئة فتاة (صبطي وعادل، 2017، ص 208). لقد افتتن دينيه بجمال الفتاة النايلية واعتبرها تجسيداً لخصوبة الأرض وبهاء الصحراء، ورأى فيها امرأة قوية، فرِحة، ومتحررة من القهر، تواجه الحياة بابتسامة ورشاقة وفن ومرح.

صورة فتيات يرقصن ويغنين مع إبراز الحلي والزينة

في سياق تحليل الرؤية الفنية لإتيان دينيه، تُعدّ لوحة *"نساء من بوسعادة"* مثالاً دالّاً على طريقته في تصوير المرأة الجزائرية بعيداً عن النزعة الاستشراقية التقليدية. فاللوحة تُبرز عدداً من النساء في فضاء محلي صحراوي بملابسهن التقليدية، دون أي مبالغة رومانسية أو تزييف بصري. لقد اعتمد الفنان مقاربة تقوم على التوثيق الدقيق للملامح والثياب والعلاقات اليومية، مما يمنح اللوحة بعداً أنثروبولوجياً واضحاً. وتكشف اختياراته الجمالية – من الإضاءة الطبيعية إلى الألوان الترابية – عن احترام عميق للبيئة الثقافية الجزائرية. ويزداد هذا البعد وضوحاً بعد اعتناق دينيه الإسلام، حيث أصبح تمثيل المرأة يجسد القيم الأخلاقية والروحية للمجتمع المحلي، مبتعداً عن النظرة الفولكلورية التي طبعت كثيراً من الفن الاستشراقي الأوروبي.

10- خاتمة

يتّضح من خلال دراسة أعمال الفنانين المستشرقين أنهم أولعوا بسحر الشرق وجماله، بما فيه من تنوّع طبيعي، وغنى عمراني، وإرث زخرفي إسلامي بالغ العمق. وقد شدّهم كذلك ما يميّز المجتمعات الشرقية من عادات وتقاليد وهوية ثقافية نابضة، فسعوا إلى الكشف عنها وتوثيقها في أعمالهم الفنية، التي حملت ملامح الحياة اليومية، ولباس المرأة الشرقية، وأدوات الزينة التي تعكس ذوقاً جمالياً مخصوصاً.

- يبرز نصر الدين دينيه في مقدمة هؤلاء بوصفه فناناً ومفكراً اتخذ من الجزائر، وبوسعادة على وجه الخصوص، موطناً روحياً وفنياً. فقد صوّر جمال الصحراء وروعة الحياة الشرقية بصدق بعيد عن الانبهار الاستعماري أو التملق لخطابه، بل إن أعماله شكّلت في كثير من الأحيان موقفاً فنياً مضاداً للاستعمار، إذ نقل الواقع كما هو، واقترب من المجتمع البوسعادي، وعاش تفاصيله، وتقاسم مع أهله آمالهم وأوجاعهم.

- عكست رسوماته قوة الجمال الصحراوي، من واحات وهواء نقي ومشاهد طبيعية خلابة، رسّخت ارتباطه بالأرض الجزائرية التي استلهم منها ألوانه وموضوعاته. وكان للمرأة النايلية نصيب وافر من هذا الاهتمام؛ إذ صوّرها في حياتها اليومية، وأبرز معالم جمالها الخاص، مركزاً على ملامح الوجه، ونظرات العين، وتناسق الزينة واللباس النايلي المميز، بما حملته هذه العناصر من جاذبية أنثوية لفتت أنظار الغرب آنذاك إلى خصوصية الجمال الشرقي الصحراوي.

- تناول المرأة النايلية في مختلف مراحل حياتها؛ من الفتاة اليافعة التي ترقص وتمرح وتتمايل مع أنغام الأعراس، إلى المرأة الأم التي تضحي وتتحمّل مسؤولية أبنائها وأسرتها، وصولاً إلى المرأة المسنّة التي تعكس تجاعيد وجهها صلابة الصحراء وقوة الصمود أمام الاستعمار وقسوة الظروف. وقد منح هذا التنوع في التمثيل صورة مكتملة للمرأة النايلية بوصفها رمزاً للنمو والحياة والاستمرارية.

- اهتم بتجسيد أدق تفاصيل الجسد والزينة والحركات، فرسم الملحفة المحتشمة، والحليّ الفضية الموروثة، موظفاً الألوان والخطوط للتعبير عن أنوثة الفتاة النايلية وتفرّدها. وقدّم عبر ذلك صورة فنية راقية ومتقنة تُبرز أصالة المرأة الصحراوية وتمسكها بهويتها.

- لم يغفل عن الجانب الوجداني في حياة الفتاة النايلية؛ إذ صوّر لحظات الفرح والسعادة، كما عكس حالات الحزن والخوف والانكسار، مبرزاً انتماء المرأة إلى ثقافتها واعتزازها بتراثها. فكانت لوحاته مرآة صادقة للثقافة الشرقية والهوية الجزائرية زمن الاستعمار.

- كشفت أعماله عن الجانب المحافظ والإسلامي للمرأة النايلية، وتمسكها بالأصالة والقيم، وتجسّد جمالها الروحي والجسدي معاً. وقد جعل هذا الصدق الفني من لوحاته سجلاً بصرياً نابضاً ينقل لذة الجمال البوسعادي وعمق الحضارة النايلية، ويمنح المشاهد فرصة لتذوق عراقة هذا المجتمع وقداسته.

**

11- المصادر والمراجع

- الطيب، ليليا عثمان .(2022) .*صورة المرأة الجزائرية في لوحات الرسام الأمريكي المستشرق فريدريك أرثر بريدجمان* .برلين، ألمانيا: المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.
- بيطار، زينات .(1992) .*الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي* .الكويت: عالم المعرفة.
- جادي، عمر، وبوشلالق، عبد العزيز. (2021). الأبعاد الأنثروبولوجية في منطقة بوسعادة: التاريخ، المجتمع والثقافة .*مجلة أنثروبولوجية الأديان*، المجلد 01، العدد 17، ص 238.
- بن حركات، الجمعي. (2022). نقد الرؤية الاستشراقية في كتاب "ألفونس إتيان دينيه" لـ"الطيب بودربالة ."*مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية*، المجلد 05، العدد 05، ص 11.
- حسني، إيناس .(2012) .*الاستشراق وسحر حضارة الشرق* .الإمارات: دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع.
- خالدي، محمد .(2009-2010) .*تحف الفنون التشكيلية بالجزائر خلال حقبة الاستعمار الفرنسي (1830-1962)*.تلمسان: جامعة أبو بكر بلقايد.
- رضا، الشيخ أحمد .(1958) .*متن اللغة* .دمشق: دار مكتبة الحياة.
- بن عيسى، سارة .(2019-2020) .*البعد التوثيقي في الرسم الاستشراقي*.
- سعد الدين، صالح .(1998) .*احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام*)ط 1). الإمارات: مكتبة الصحابة.
- صبطي، عبيدة، وقايد، عادل. (2017). الصورة الفنية ودورها في بناء الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري: قراءة سيميولوجية لصورة الفنان دينيه .*مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*، العدد 29، ص 208.
- أحمد مختار، عمر .(2008) .*معجم اللغة العربية المعاصرة* .القاهرة: عالم الكتب.
- باعلي، سيد أحمد .(1975) .*نصر الدين دينيه الفنان المبدع في الرسم الجزائري* .الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- بن يمينة، فايزة .(2014-2015) .*الفن الاستشراقي: إيتيان دينيه نموذجاً* .تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد.
- قجال، نادية .(2010-2011) .*الفنون الشعبية في لوحات إتيان دينيه* .الجزائر: أطروحة دكتوراه في الفنون الشعبية.
- يحي، مراد .(1978) .*معجم أسماء المستشرقين* .القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مردوخ، إبراهيم .(1988) .*الحركة التشكيلية المعاصرة بالجزائر* .الجزائر: وزارة الثقافة.
- مصطفى، إبراهيم .(1960) .*المعجم الوسيط* .القاهرة: مجمع اللغة العربية.
- ملوحي، ناصر محي الدين .(2020) .*العولمة والاستشراق: دراسة نقدية* .سوريا: دار الغسق للنشر.